سورة طه

سئل رحمه الله عن معنى هذه الآية : (قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) الآية(١) .

فأجاب : اعلم رحمك الله أن الله سبحانه عالم بكل شيء يعلم ما يقع على خلقه ، وأنزل هذا الكتاب المبارك الذي جعله تبياناً لكل شيء وتفصيلا لكل شيء ، وجعله هدى لأهل القرن الثاني عشر ، ومن بعدهم ، كما جعله هدى لأهل القرن الأول ومن بعدهم .

ومن أعظم البيان الذي فيه بيان(٢) جواب الحجج الصحيحة ، والجواب عما يعارضها ، وبيان الحجج(٣) الفاسدة ، ونفيها فلا إله إلا الله ماذا حُرمه المعرضون عن كتاب الله من الهدى والعلم ، ولكن لامعطي لما منع الله ،

---

(١) قوله تعالى : (ومن أعْرضَ عن ذِكْري فإنَّ له معيشة ضَنْكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً . قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنسى وكذلك نجزى من أسْرفَ ولم يؤمن بآيات ربّه ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبْقى) سورة طه الآيات : ١٢٤ — ١٢٧ .

(٢) في س « بيان الحجج الصحيحة » .

(٣) في س « وبيان بطلان الحجج الفاسدة » .

وهذه التي سئلتُ عنها فيها بيان بطلان شبه يحتج بها بعض أهل النفاق والريب في زماننا ؛ وهذا في قضيتنا هذه ، وبيان ذلك أن هذه في آخر قصة آدم وإبليس ، وفيها من العبر والفوائد العظيمة لذريتهما ما يجل عن الوصف ، فمن ذلك أن الله أمر إبليس بالسجود لآدم ولو فعل لكان فيه طاعة لربه وشرف له ؛ ولكن سوّلت له نفسه أن ذلك نقص في حقه إذا خضع لواحد دونه في السن ودونه في الأصل على زعمه ، فلم يطع الأمر واحتج على فعله بحجة ؛ وهي أن الله خلقه من أصلٍ خير من أصل آدم ولا ينبغي أن الشريف يخضع لمن دونه ، بل العكس ، فعارض النص الصريح بفعل الله الذي هو الخالق فكان في(١)هذا عبرة عظيمة لمن رد شيئاً من أمر الله ورسوله، واحتج بما لا يجدي ، فلما فعل لم يعذره الله بهذا التأويل؛ بل طرده ورفع آدم وأسكنه الجنة ، وكان مع عدو الله من الحذق والفطنة ودقة المعرفة ما يجل عن الوصف ؛ فتحيّل على آدم حتى ترك شيئاً من أمر الله ، وذلك بالأكل من الشجرة ، واحتج لآدم بحجج ، فلما أكل لم يعذره الله بتلك الحجج، بل أهبطه إلى الأرض وأجلاه(٢) عن وطنه .

ثم قال : (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم مني هدى)(٣) يقول تعالى : لمّا أجليتكم عن وطنكم فإن بعد هذا الكلام وهو

---

(١) في س « في هذه » .

(٢) في س « وجلاّه » .

(٣) قوله تعالى في نهاية قصة آدم : (قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإمّا يأتينّكم مِني هدى فمن اتّبع هُدَايَ فلا يضلُّ ولايشقى) الآية : ١٢٣ وبعدها مباشرة (ومن أعرض عن ذكري .....) .

أني مرسل(١) إليكم هدى من عندي ، لا أكلكم إلى رأيكم ولا رأى علمائكم ، بل أنزل إليكم(٢) العلم الواضح الذي يبين الحق من الباطل ؛ والصحيح من الفاسد والنافع من الضار (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)(٣) .

ومعلوم أنّ الهدى هو هذا القرآن ، فمن زعم أن القرآن لا يقدر على الهدى منه إلا من بلغ رتبة الاجتهاد فقد كذّب الله في خبره أنه هدى ، فإنه على هذا القول الباطل لا يكون هدى إلا في حق الواحد من الآلاف المؤلفة ، وأما أكثر الناس فليس هدى في حقهم ، بل الهدى في حقهم أن كل فرقة تتبع ما وجدت عليه الآباء فما أبطل هذا من قول ! وكيف يصح لمن يدعى الإسلام أن يظن في الله وكتابه هذا الظن ؟

ولما عرف الله سبحانه أن هذه الأمة سيجري عليها ما جرى على من قبلها من اختلاق على أكثر من سبعين فرقة ، وأن الفرق كلها تترك هدى الله إلا فرقة واحدة ، وأن الفرق(٤) كلها يقرون بأن كتاب الله هو الحق ، لكن يعتذرون بالعجز ، وأنهم لو يتعلمون كتاب الله ويعملون به لم يفهموه لغموضه قال : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) وهذا تكذيب لهؤلاء الذين ظنوا في القرآن ظن السوء .

قال ابن عباس : تكفّل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضلّ

---

(١) في س « أرسل إليكم » .
(٢) في س « بل أنزل عليكم » .
(٣) سورة النساء : ١٦٥ .
(٤) في س « وأن كل الفرق » .

في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، وبيان هذا أن هؤلاء يزعمون أنهم لو تركوا طريقة الآباء ويقتصرون على الوحي لم يهتدوا بسبب أنهم لا يفهمون ، كما قالوا : (قلوبنا غلف)(١) فرد الله عليهم بقوله : (بل لعنهم الله بكفرهم) فضمن لمن اتبع القرآن أنه لا يضل كما يضل من اتبع الرأي ؛ فتجدهم في المسألة الواحدة يحكون سبعة أقوال أو ستة ليس منها قول صحيح ، والذي ذكر(٢) الله في كتابه في تلك المسألة بعينها لا يعرفونه .

والحاصل أنهم يقولون: لم نترك القرآن إلا خوفاً من الخطأ ،ولم نُقْبِلْ على ما نحن فيه إلا للعصمة . فعكس الله كلامهم ، وبين أن العصمة في اتباع القرآن إلى يوم القيامة .

وأما قوله تعالى : (ولا يشقى) فهم يزعمون أن الله يرضى بفعلهم ويثيبهم عليه في الآخرة ولو تركوه واتبعوا القرآن لغلطوا أو عوقبوا ، فذكر الله أن من اتبع القرآن أمن من المحذور الذي هو الخطأ عن الطريق ، وهو الضلال ، وأمن من عاقبته وهو الشقاء في الآخرة .

ثم ذكر الفريق الآخر الذي أعرض عن القرآن فقال : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا) وذكرُ الله هو القرآنالذي بيّنَ الله فيه لخلقه ما يحب ويكره ، كما قال تعالى : (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين) الآيتين(٣) ، فذكر الله لمن أعرض عن القرآن ، وأراد الفقه من غيره عقوبتين :

---

(١) قوله تعالى : (وقالوا : قلوبنا غُلْفٌ بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون) سورة البقرة الآية : ٨٨ .

(٢) في س « ذكره » .

(٣) قوله تعالى : (ومن يَعْشُ عن ذِكْر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو قرين . وإنهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسَبون أنهم مهتدون) سورة الزخرف : ٣٦ ــ ٣٧ .

إحداهما : المعيشة الضنك ؛ وفسرها السلف بنوعين :

الأول : ضنك الدنيا : وهو أنه كان إنْ غنيا سلط الله عليه خوف الفقر ، وتعب القلب والبدن في جمع الدنيا حتى يأتيه الموت ولم يتهنّ بعيش .

والثاني : الضنك في البرزخ وعذاب(١) القبر .

وفُسّر الضنك في الدنيا أيضاً بالجهل ؛ فإن الشك والحيرة هما من القلق وضيق الصدر ماها . فصار في هذا مصداق قوله في الحديث عن القرآن : « من ابتغى الهدى من غيره أضله الله »(٢) عاقبهم بضدّ قصدهم ، فإنهم قصدوا معرفة الفقه فجازاهم الله بأن أضلّهم ، وكدّر عليهم معيشتهم بعذاب قلوبهم بخوف الفقر وقلة غناء أنفسهم ؛ وعذاب أبدانهم بأن سلط عليهم الظلمة والحيرة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء فإن أعظم الناس تعادياً هؤلاء الذين ينتسبون إلى المعرفة .

ثم قال : (ونحشره يوم القيامة أعمى) والعمى نوعان :

---

(١) في س « وهو عذاب القبر » .

(٢) روى الترمذي بسنده (في كتاب ثواب القرآن) أن النبي صل الله عليه وسلم قال : (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . . . .) .

وذلك في حديث طويل ، ثم علّق عليه الترمذي بقوله : « هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث (راويه) مقال » .

سنن الترمذي (كتاب ثواب القرآن) .

عمى القلب ، وعمى البصر[1] ، فهذا المعرض عن القرآن لما عميت بصيرته في الدنيا عن القرآن جازاه الله بأن حشره يوم القيامة أعمى . قال بعض السلف : أعمى عن الحجة لا يقدر على المجادلة بالباطل كما كان يصنع في الدنيـــا .

(قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) فذكر الله أنه يقال له : هذا[2] بسبب إعراضك عن القرآن في الدنيا ، وطلبك العلم من غيره .

قال ابن كثير[3] في الآية : (ومن أعرض عن ذكرى) أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي ، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه (فإن له معيشة ضنكاً) أي في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح ولا تنعّم .

ظاهره أن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا فكانت معيشتهم ضنكاً وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفاً[4] لهم معاشهم مع ســـوء ظنهم بالله ، ثم ذكر كلاماً طويلاً وذكر ما ذكرته من أنواع الضنك والله أعلم .

---

(١) في س « وعمى البصيرة » . والظاهر أن عمى القلب هو عمى البصيرة .

(٢) في س « إن هذا » .

(٣) راجع : تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٦٨ (طبعة المكتبة التجارية) .

(٤) في ٥١٦ — ٨٦ « مخالفاً » .